الانجازات العمرانية لنائبي بني ايوب في عدن عثمان بن علي النكريتي والمعتمد النكريتي

الدكتور محمد كريم ابراهيم
مركز دراسات الخليج العربي
جامعة البصرة

مقدمة :

تمكن السلطان توران شاه بن ايوب اخي السلطان صلاح الدين الايوبي من دخول بلاد اليمن وفتحها والسيطرة على مدينة عدن، بعد دخوله مدينة زبيد، وكان دخول الجيش الايوبي لمدينة عدن يوم الجمعة ٢٠ ذي القعدة سنة ٥٦٩هـ /١١٧٣م[١]، بعد قتال اميرها ياسر بن بلال بن جرير الذي هزم بعد انكساره وعدم قدرته على المقاومة، وبدخول توران شاه عدن سقطت دولة بني زريع، وهي الدولة الثانية التي سقطت بعد دولة بني مهدي في زبيد، وواصل توران شاه اكمال سيطرته على بقية بلاد اليمن وفتح معظم حصونها وقلاعها ونشر الامن فيها، ثم غادرها بعد ان مكث فيها مدة وكانت مغادرته الى بلاد الشام سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥م[٢].

(١) ابن حاتم، السمط الغالي ص ١٧، الخزرجي، الكفاية والاعلام ورقة ٧٢ب، يحيى بن الحسين، غاية الأماني ص ٣٢٣، د. حسن سليمان محمود. تاريخ اليمن السياسي ص ٢٤٣.

(٢) عن تفاصيل حملة توران شاه لفتح بلاد اليمن، انظر ابراهيم، د. محمد كريم. عدن دراسة في احوالها السياسية والاقتصادية من ٢١٩ - ٢٢١، وعن سيطرته على عدن، انظر المصدر نفسه ص ٢٢١ - ٢٢٢.

عين توران شاه نوابا على مدن اليمن المهمة قبل مغادرتها، كانوا يرسلون الاموال السنوية اليه في بلاد الشام، وهم: عز الدين ابو عمرو عثمان بن علي الزنجيلي[3] التكريتي[4] على عدن واعمالها، وهو اول والٍ عليها في العصر الايوبي، وياقوت التعزي على تعز، ومظفر الدين قايماز على مخلاف جعفر وحصن التعكر وذي جبلة والجند، وسيف الدين مبارك بن منقذ الكناني (من امراء شيزر) على زبيد واعمالها وجميع تهامة، وكان هؤلاء النواب من قادة توران شاه ومن الامراء الذين رافقوه في حملته لفتح بلاد اليمن[5].

سيكون منهجنا في هذا البحث ابراز الانجازات العمرانية في مدينة عدن من قبل السلاطين الايوبيين ونوابهم، وتتمثل هذه الانجازات في المجالين الاقتصادي والاجتماعي، ففي المجال الاقتصادي سندرس الاسواق والقيصاريات ومنشآت ميناء عدن ودور الصناعة فيها، اما في المجال الاجتماعي فسندرس الانجازات العمرانية المرتبطة بالسكان، والتي نتجت عن تطور مدينة عدن وانفتاحها على التجارة العالمية، مما ادى الى ازدياد سكانها وتنوع الخدمات الاجتماعية فيها، وشملت تلك الانجازات دور السكان وازديادها، والاوقاف والمساجد، والحمامات وابار المياه، وابرز البحث الدور المتميز لنائبي بني ايوب في عدن، ابو عمرو عثمان بن علي الزنجيلي التكريتي والمعتمد رضي الدين محمد بن علي التكريتي، اذ كان لهما دور متميز في تلك الانجازات العمرانية خلال مدة حكمهما عدن.

أ- الانجازات العمرانية الاقتصادية:

ازدهرت عدن في العصر الايوبي، واهتم بها الايوبيون اهتماما كبيرا، لانها مركز تجاري مهم تمثل احدى موانىء اليمن المهمة المعروفة بكثرة مواردها من رسوم التجارة، بسبب وصول مراكب التجار اليها من مختلف ارجاء العالم، وقد شكلت تلك الموارد عصب الحياة الاقتصادية لمدينة عدن، وانعكست اثارها على سياسة الدولة الايوبية في اليمن.

---

(٣) الزنجيلي: نسبة الى زنجيلة من قرى دمشق الشام. ابو مخرمة: تاريخ ثغر عدن ج ٢ ص ١٣١.

(٤) ابن المجاور، تاريخ المستبصر ص ١٢٧، ١٤١، وقد انفرد بذكر لقبه هذا، الذي يتضح انه نسبة الى مدينة تكريت المشهورة في العراق، وذكر الاستاذ حزة لقمان ان الزنجيلي كان ضابطا في جيش توران شاه. تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية ص ٦٥.

(٥) انظر عن مغادرة توران شاه لليمن وتعيين النواب على مدنه المهمة، د. محمد كريم. عدن ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

وفي عهد بني ايوب كثر الناس بعدن وتوطنها العرب وغيرهم من التجار والعاملين في الوسط التجاري من جنسيات مختلفة، وكانت الحركة التجارية نشطة وواسعة داخل مدينة عدن وميناءها، ادت الى ثراء اهلها وتحسن حياتهم وامورهم المعيشية، وقد استغلت موارد الميناء في تطوير المدينة عمرانيا، فحفر الناس بها الابار وبنوا المساجد والاسواق والدكاكين، وتمتعت عدن بمكانة متميزة وشهرة واسعة، وفي عهد نائب بني ايوب ابو عمرو عثمان بن علي الزنجيلي التكريتي، ازدهرت عدن وعظم شأنها ونشطت الحركة التجارية فيها، وازداد عدد سكانها العرب وكثرت العمارة فيها، واراد ان يجعل منها قاعدة مهمة للبيع والشراء[٦].

بامكاننا ان نجمل الانجازات العمرانية الاقتصادية بما يلي:

١. الاسواق والقيصاريات

كان من ابرز دلائل اهتمام الامير عثمان الزنجيلي التكريتي في المجال الاقتصادي، بناء القيصارية التي سماها ابن المجاور[٧] بـ: «قيصارية العتيقة»، ذكر الاستاذ حمزة لقمان[٨] ان الزنجيلي بنى الاسواق المسقوفة المعروفة بـ: «القيصارية»، وكانت مخصصة لبيع المواد الطبية، ونعتقد ان المقصود بتلك المواد، هي المواد النباتية والتوابل في الاعم الارجح، والتي تستعمل في الطعام وصناعة العطور فضلا عن استعمالها مواد طبية لمعالجة الامراض والعلل بعد خلطها، وكانت تجارة تلك المواد رائجة في عدن وترد من اماكن شتى، مثل مواد: الانكزة (الحلتيت) وقشر المحلب والقوّة والزعفران وغيرها[٩].

وبنى الامير عثمان بعدن: «خان البز» وكان سوقا، وقد جعله وقفا على مسجده المعروف باسمه (مسجد الزنجيلي) يصرف منه على مايحتاجه المسجد، ومازاد عن ذلك كان يصرفه على المسجد الحرام بمكة المكرمة[١٠]، وتجدر الاشارة هنا الى ان حكام اليمن من الايوبيين قد شيدوا فنادق وقيصريات رائعة، وكان الفندق في ذلك الزمان

---

(٦) ابو مخرمة، تاريخ ثغر عدن ج ١ ص ١٠، لقمان، تاريخ عدن ص ٦٥، ٣١٩.
(٧) تاريخ المستبصر ص ١٣٠.
(٨) تاريخ عدن ص ٦٦.
(٩) ابن المجاور، تاريخ المستبصر ص ١٤٠ ـ ١٤١.
(١٠) الجندي، السلوك في طبقات العلماء والملوك ج ٣ ورقة ١١٦أ، الخزرجي الكفاية والاعلام ورقة ٧٧أ، ابن الديبع، قرة العيون باخبار اليمن الميمون ق ١ ص ٣٨٥.

هو: الخان، والقيصرية، بازار[11]، اي انه سوق تباع فيه انواع شتى من البضائع، وليس سوقا متخصصا ببضاعة او مادة معينة، ذكر الاستاذ لقمان[12]: ان الخان الذي بناه الزنجيلي بعدن كان سوقا، ونفهم من تسميته بـ:(خان البز)، انه كان سوقا مخصصا لبيع البز، وهو نوع معروف من الاقمشة، ويحتمل ان ذلك الخان كان مبنيا من طابقين الارضي (السفلي) منه سوق ومخزن للبضائع، والعلوي منه فندق لمبيت التجار والعاملين في السوق، اذ ان الخانات ـ كما نعلم ـ كانت بمثابة محطات استراحة للقوافل التجارية في الطرق الخارجية ومكانالمنام المسافرين، لكنها في المدن كانت مخازن واسواق للبضائع، ومكان لمنام التجار والعاملين في الوسط التجاري، لذا فلانستبعد ان يكون الخان الذي بناه الزنجيلي بعدن سوقا وفندقا في ان واحد.

وقام السلطان طغتكين بن ايوب (٥٧٩ ـ ٥٩٣هـ / ١١٨٣ ـ ١١٩٦م) ببناء قيصارية جديدة للعطارين في عدن جميعها دكاكين ولها باب يغلق ليلا[13]، ويدلنا هذا البناء على مدى اهتمامه بالاحوال الاقتصادية، اذ خصص للعطارين سوقا، ونستدل من اغلاق تلك السوق بباب خاصة لها ليلا على تطور حضري كبير واهتمام بشؤون التجار ومتاجرهم لحمايتها من السراق ليلا، وهذا نظام لايزال متبعا ـ الى اليوم ـ في المدن التجارية المهمة، وفي المراكز الاقتصادية الحيوية فيها، وقبل ان المعتمد رضي الدين محمد بن علي التكريتي نائب بني ايوب في عدن[14]، جدد بناء القيصارية التي بناها السلطان طغتكين بن ايوب، وكان تجديد البناء على اسم الملك المسعود يوسف بن محمد بن ابي بكر (٦١١ ـ ٦٢٦هـ / ١٢١٤ ـ ١٢٢٨م)، اي في عهده، ولعل ذلك التجديد تم في اواخر العصر الايوبي في اليمن، ذكر الاستاذ حمزة لقمان[15] ان المعتمد التكريتي جدد بناء القيصارية التي بناها الامير عثمان بن علي الزنجيلي التكريتي في عدن، ولعل تسمية ابن المجاور لتلك القيصارية بـ: «قيصارية العتيقة» ترجع الى انها اقدم قيصارية بنيت في عدن في العصر الايوبي، اي انها بنيت قبل القيصارية التي بناها السلطان طغتكين بن ايوب وكذلك القيصاريات الاخرى التي بنيت او جدد بناؤها بعد عهده.

---

(١١) التاريخ الاقتصادي للشرق الاوسط ص ٥٣.
(١٢) تاريخ عدن ص ٢٦٧.
(١٣) ابو غرامة. تاريخ ثغر عدن ج ٢ ص ٢٢٣.
(١٤) سنوضح ان المعتمد التكريتي تولى نيابة عدن في عهد السلطان طغتكين سنة ٥٨٥هـ، واستمر حتى اواخر العصر الايوبي في اليمن.
(١٥) تاريخ عدن ص ٧٤.

وقيل في رواية اخرى[16] ان الملك المعز اسماعيل بن طغتكين (٥٩٣ ـ ٥٩٨هـ / ١١٩٦ ـ ١٢٠١م)، بنى في عدن بناية جميعها دكاكين وقيصارية جديدة للعطارين، اذ تذكر تلك الرواية بصددها مانصه: «وبنى الملك المعز اسماعيل بن طغتكين بن ايوب بنياجميعها دكاكين بالباب والقفل للعطارين قيصارية جديدة». وبرغم اضطراب هذا النص، الا اننا نفهم ان الملك المعز بنى بناية جديدة في عدن جميعها دكاكين، وهي بناية خاصة للعطارين لها باب يغلق ليلا، وتضيف تلك الرواية ان المعتمد التكريتي نائب بني ايوب في عدن بنى تلك القيصارية على اسم الملك المسعود يوسف بن محمد بن ابي بكر اي انها جددت في عهده.

من خلال الروايتين السابقتين حول بناء وتجديد تلك القيصارية التي بناها السلطان طغتكين وولده المعز اسماعيل، نرجح أن البناء بدأ في عهد السلطان طغتكين، وربما في اواخر عهده ثم اكمله ولده الملك المعز، الذي اتصف عهده بعدم الاستقرار، ولم يشهد تطورات مهمة في المجال الاقتصادي، بسبب ذلك، ولعل نائب بني ايوب المعتمد التكريتي قد وجه عناية خاصة بالمنشآت الاقتصادية من حيث بنائها او تجديد ذلك البناء، ونعتقد ان القيصارية التي اختلفت الروايات حول بنائها بين السلطان طغتكين وولده الملك المعز اسماعيل، هي قيصارية واحدة جدد بناءها المعتمد التكريتي في عهد الملك المسعود يوسف الايوبي، فتكونت روايتان مختلفتان حولها، وحول تجديد المعتمد التكريتي لبنائها في عهدي السلطان طغتكين وولده المعز اسماعيل.

ولما كانت عدن ميناءً تجاريا يعج بالحركة التجارية مع مختلف ارجاء العالم، فقد عرفت فيها الاسواق المتخصصة، ويرتبط ذلك التخصص بحاجة سكانها، ولعل بعض تلك الاسواق كان موجودا قبل العصر الايوبي، ربما في عهد بني زريع امراء عدن (٥٣٢ ـ ٥٦٩هـ / ١١٣٧ ـ ١١٧٣م) او قبله، واستمر وجودها خلال العصر الايوبي، ومن تلك الاسواق التي ورد ذكرها عرضا في العصر الايوبي ولعلها كانت قائمة قبل ذلك، سوق الخزف، الذي ورد في حديث ابن المجاور[17] عن ابار مدينة عدن، فذكر بئر سوق الخزف، ونستدل من تسميته انه سوق مختص ببيع وتجارة الخزف، الذي كان يصل ميناء عدن من الخارج، ربما من الصين وغيرها، او ان قسما منه كان يصنع محليا في عدن واطرافها، لسد حاجة السكان، ويبتاعه المترفون والموسرون من الامراء والتجار واصحاب الثروة والجاه.

(١٦) ابن المجاور. تاريخ المستبصر ص ١٣٠.
(١٧) تاريخ المستبصر ص ١٣٢.

وورد ذكر صاغة يهود في عدن، ولعل ذلك يوحي بوجود سوق خاصة بهم، يمكن تسميتها بـ: سوق الصاغة، يروي ابن المجاور[18] انه التقى بصائغ يهودي في عدن، ولاشك ان لليهود خبرة ومهارة في هذه المهنة التي كانت رائجة في مدينة ووسط تجاري مثل عدن، ولابد ان يخصص لها سوقا، ولعل تلك السوق كانت موجودة قبل العصر الايوبي، واستمر وجودها خلال هذا العصر، بسبب نشاط التجارة واستقرار الاحوال الداخلية في عدن.

وعرفت في عدن الاسواق المتخصصة ذات المساس بحياة السكان اليومية، وكانت تلك الاسواق قد ضمنت جميعها في اواخر العصر الايوبي وهي: سوق الخضرة والجواري والرطب واللحم وجميع الدواب[19]، هذا وتجدر الاشارة الى ان معلوماتنا حول تلك الاسواق لاتزال غامضة وموجزة جدا، فلا نعرف شيئا عن تاريخ انشائها واماكنها في عدن، او طبيعة التعامل اليومي فيها، لان المصادر الاولية لاتعطينا عنها سوى معلومات عامة وبسيطة جدا، ولتلك الاسواق طابعا معماريا وتراثيا خاصا بها، وحبذا لو توفرت المعلومات التي تضيف عليها امورا جديدة.

٢. منشآت ميناء عدن:

اهتمت الدولة الايوبية بميناء عدن اهتماما كبيرا، وتم بناء بعض المنشآت ذات الصلة الوثيقة به، من اجل ان يؤدي دوره وخدماته بشكل مناسب، وذلك نتيجة للتطور الهائل الذي شهده، بسبب ازدياد الحركة التجارية فيه، وتحقيق الامن والاستقرار نتيجة للرعاية الخاصة التي اولاها الايوبيون له، لاستثمار موارده المالية الكبيرة في مجالات متنوعة، وبإمكاننا ابراز ذلك النشاط ومكانة عدن وطبيعة الحركة التجارية فيها من خلال ماذكره ابن المجاور[20] عن رسو المراكب في الميناء، حيث بلغ

(١٨) نفسه ص ٣٢.

(١٩) نفسه ص ١٤٨، ويمثل الضمان صورة من صور الارتباك الاقتصادي الذي يحمل معه الظلم والجشع والاحتكار، فالضمان هو تأجير لشخص او لمجموعة وقيامها بالتصرف حسب اهوائها، وتأخذ الدولة مقدار الضمان مسبقا من الضامن بعد الاتفاق معه على مبلغ معين ثم يقوم الضامن باتباع شتى الاساليب لجمع امواله وحصوله على الارباح، وفي اواخر العصر الايوبي ضمن في عدن القبان بعشرين الف دينار سنويا كما ضمنت الاسواق التي ذكرناها، وضمن المملاح وهو موضع يجمد فيه الملح قرب عدن، وضمن صهريج الماء الذي بناه بنو زريع وكان ضمانه سنة ٦٢٥هـ بالف وثلثمائة دينار، ابن المجاور، تاريخ المستبصر ص ١٣٢ - ١٣٣، ١٤٨، وشمل الضمان مدينة زبيد، فكان ضمان البلد من سنابيق (مراكب) الصيادين والخضر واليقول تباع مع الغلال تسعين الف دينار ملكي، وضمان دار الضرب ثلاثة عشر الف دينار ودار البيذ اثنا عشر الف دينار وضمان النخل مائة الف دينار. تاريخ المستبصر ص ٨٩ - ٩٠.

(٢٠) تاريخ المستبصر ص ١٤٤.

عددها بين ٧٠ ـ ٨٠ مركبا في العام، قابلة للزيادة والنقصان، ونرجح ان المقصود بالعام هنا: الموسم، ويتضح لنا ان نشاط الميناء كان واسعا، اذ ان موسم التجارة يرتبط بظروف كثيرة، منها الظروف الطبيعية كحركة الرياح وخاصة الرياح الموسمية، ويرتبط كذلك بظروف الاستقرار السياسي وتوفير الحماية اللازمة للمراكب التجارية في البحر خلال ذهابها وايابها بين عدن والعالم الخارجي، بالقضاء على اللصوص وقراصنة البحر، وكانت امور التفتيش والتدقيق وحساب العشور لكل مركب تستغرق بحدود ثلاثة ايام[٢١]، ونستنتج من ذلك انه يتم تفريغ مركبين خلال الاسبوع الواحد، ويصل عشور بعض المراكب مبلغا كبيرا، وكانت تلك الموارد ذات اهمية كبيرة لتمشية امور الدولة، اذ تنقل من عدن الى خزائنها في العاصمة تعز[٢٢].

كان من ابرز انجازات الامير عثمان الزنجيلي التكريتي في ميناء عدن بناء الفرضة[٢٣]، التي تعني: المرفأ أو الكلأ الذي تكلأ اليه السفن التجارية، وهي المنطقة التي ترسو عندها السفن لتفريغ بضاعتها، وكانت تقع الفرضة مقابل دار السعادة بعدن، وجعل لها الزنجيلي بابين: باب الى الساحل تدخل منه البضائع لدفع الرسوم عليها، وباب الى المدينة تخرج منه البضائع بعد دفع الرسوم المفروضة عليها[٢٤]، ويتضح لنا موقع الفرضة في الخارطة المرفقة بالبحث، ولاتـــــزال آثار الفرضة باقية ـ الى اليوم ـ على شق جبل صيرة من جهة الغرب، ويعرف المكان الان بـ: «ابو علي»[٢٥]، ويشير الاستاذ حمزة لقمان[٢٦] الى ان سجن عدن وجمركها كانا في صيرة خلال مراحل من تاريخها، وهذا يوضح لنا اهمية حصن صيرة واتخاذه مقرا لمؤسسات مهمة تابعة للميناء.

ومن مظاهر اهتمام الامير عثمان الزنجيلي التكريتي بمدينة عدن وميناءها، تجديد بناء اسوار عدن، تلك الاسوار التي بنيت في عهد بني زريع، ولم يكن لها سور قبل عهدهم من ناحية الميناء ولا على الجبال المحيطة بها، وكان سبب بنائه ان التجار وأصحاب السفن بدأوا يهربون البضائع ليلا الى المدينة، بعد ازدياد الرسوم عليها، فبنى اول سور لعدن من جهة البحر، امتد من حصن الخضراء الى جبل حقات، وكان

(٢١) نفسه ص ١٣٩.
(٢٢) نفسه ص ١٤٤.
(٢٣) فرضة النهر ثلمته التي يستقى منها، وفرضة البحر: محط السفن، والفرضة: المشرعة، الجوهري، الصحاح ج ٣ ص ١٠٩٧، ابن منظور. لسان العرب مج ٧ ص ٢٠٦.
(٢٤) ابن المجاور تاريخ المستبصر ص ١٢٨، أبو مخرمة. تاريخ ثغر عدن ج ١ ص ١٠، ١٤، لقمان، تاريخ عدن ١٦٦، اباظة. عدن ص٢٨، مجهول المؤلف. قلائد الجمن ص ٨٣، ٨٧، ٩٦.
(٢٥) قلائد الجمن ص ٨٧، وكانت الفرضة على ناحية من جبل صيرة غربا. نفسه ص ٩٦.
(٢٦) تاريخ الجزر اليمنية ص ٢٦.

سورا ضعيفا تهدم بعضه، بسبب قوة امواج حقات وارتطامها به، ثم ادير عليه سور ثانٍ من القصب كان مشبكا[٢٧]، وبقي على حاله حتى دخول توران شاه الى عدن، فجدد هذا السور، واضاف اليها الامير عثمان اسوارا اخرى، اذ بنى سورا دائرا من جبل المنظر الى اخر جبل العُرْ وركب عليه باب حقات، وادار سورا ثانيا على جبل الخضراء، ابتدأ من حصن الخضراء الى حصن التعكر على رؤوس الجبال، ثم ادار سورا ثالثا على الساحل من سطح جبل الخضراء الى جبل حقات، وركب عليه ستة ابواب، وكان بناء سور عدن بالحجر والجص[٢٨].

نستنتج مما سبق ان الامير عثمان الزنجيلي التكريتي نائب بني ايوب في عدن، اضاف اسوارا اخرى جديدة لسور عدن القديم، وجدد بناء بعض تلك الاسوار، وهذا يعني ان تلك الوحدات العمرانية كانت قائمة وحصلت عليها اضافات وتجديدات. وكان الهدف من بناء تلك الاسوار وتجديدها، منع عمليات تهريب البضائع من البحر الى المدينة، كما ان بعض تلك الاسوار كانت اشبه بالسدود لتمنع دخول السيول للمدينة، ومنها السور الذي بناه بنوزريع وهدمته امواج حقات فاعيد بناؤه، وعموما فان مثل هذه الاسوار كانت مهمة لمنع الغزاة من دخول عدن، سواء كان غزوهم بحريا ام بريا، ويدلنا الاهتمام بهذه الاسوار، على اهمية عدن، التجارية التي اجتذبت انتباه حكام اليمن باستمرار، فزاد اهتمامهم بها وباصلاح مينائها.

وكان من مظاهر اهتمام الايوبيين بحماية ميناء عدن، قيام السلطان طغتكين بن ايوب بتشييد بناية على جبل حقات لمشاهدة مراكب تجار الكارم[٢٩] القادمين من مصر، ويتضح لنا موقع تلك البناية في الخارطة المرفقة بالبحث، وكان لها اهمية في مراقبة وصول تلك المراكب التي كانت تحمل الكارم والذي يشكل جزءا مهما من التجارة بين مصر وعدن، ولاشك ان هنالك نواظير او مراقبين اتخذوا من موقع تلك البناية مقرا لهم، ويشكل بناء هذه المنشأة انجازا عمرانيا مهما في ميناء عدن.

٣. دور الصناعة:

اشتهرت عدن بصناعة الطيب (العطور) اذ كان لاهلها شهرة ومهارة فيها، وعرفت فيها ايضا صناعة القنبار الذي يستخدم في مجالات عديدة كالافرشة الخاصة

(٢٧) ابن المجاور. تاريخ المستبصر ص ١٢٧ ـ ١٢٨، ابو مخرمة. تاريخ ثغر عدن ج١ ص ١٣ ـ ١٤، لقمان. تاريخ عدن ص ٦٥، حسن صالح شهاب. اضواء على تاريخ اليمن البحري ص ٢٤٢. العبدلي. هدية الزمن في اخبار ملوك لحج وعدن ص ٢١، مجهول. قلائد الجمن ص ٨٢ـ٨٣.

(٢٨) ابن المجاور. تاريخ المستبصر ص ١٢٨، لقمان. تاريخ عدن ٦٥ـ٦٦.

(٢٩) الكارم: تابل من التوابل، وهو العنبر الاصفر، انظر عن تجارته: ابراهيم. عدن ص ٣٤٩ ـ ٣٥٢، ٣٦٧، وعن الخارطة الملحقة بالبحث: ابن المجاور تاريخ المستبصر ص ١٢٩ ابو مخرمة. تاريخ ثغر عدن ج ١ مقابل ص ٧٠.

بالبيوت وصنع الحبال او الأمراس المفتولة لربط أجزاء السفن الراسية في البحر، كذلك عرفت صناعة النبيذ في عدن، وكانت لها دار خاصة بها عرفت بـ: «دار النبيذ»، وكانت تضمن من قبل الدولة للاهالي مقابل مبلغ من المال سنويا[٣٠]، وعرفت صناعة الزجاج فكانت هنالك معملة للزجاج في السيلة احدى قرى لحج، واثار تلك الصناعة ظاهرة الى الان[٣١].

وفي رواية[٣٢] ان الايوبيين بنوا مصنعا للزجاج في مكان يقال له: لخبة[٣٣]، ويعرف الان بـ: السيلة الى الشمال الغربي من مدينة (دار سعد)، وهذا يؤكد لنا ان بناء ذلك المصنع قد تم في منطقة قريبة من مدينة عدن، وقد اشتهرت اللخبه بصناعة الاجر (الطابوق) والزجاج، وكان الاجر والزجاج ينقلان منها الى عدن، وتسمى اللخبه الان: بئر احمد[٣٤]، وكان لتلك الصناعات دور كبير في تطور مدينة عدن واتساع عمارتها من الدور والابنية الاخرى، هذا ونستدل من بناء تلك المصانع ودور الصناعة على انجازات عمرانية ذات مدلول اقتصادي شجعتها الدولة الايوبية، ولابد ان تكون لدور الصناعة هذه مواصفات عمرانية معينة شيدها الايوبيون خلال حكمهم في عدن واطرافها.

ب ـ الانجازات العمرانية الاجتماعية

ونعني بها الانجازات المرتبطة بانشاء وتجديد بناء المنشآت التي تقدم الخدمات الاجتماعية للسكان اي الخدمات ذات النفع العام للسكان، فقدتطورت مدينة عدن وازدهرت منذ عهد بني زريع، واستمر ذلك التطور والاتساع في العصر الايوبي، وكان بنو زريع يسكنون الحصون في الجبال ثم نزلوا وسكنوا الوادي وبنوا الدور والقصور الجميلة، فكانوا اول من بنى الدور بالحجر والجص في عدن[٣٥]، ويمكننا اجمال الانجازات العمرانية الاجتماعية بما يلي:

---

(٣٠) ابن المجاور تاريخ المستبصر ص ١٣٧، ١٤١ انظر عن الصناعة في عدن: ابراهيم عدن ص ٣٣٨ ـ ٣٤٠.
(٣١) العبدلي. هدية الزمن ص ٨ ـ ٩.
(٣٢) شهاب. اضواء على تاريخ اليمن البحري ص ٢٤٧.
(٣٣) موضع بظاهر عدن أبين وضواحيها، الصعاني. التكملة ج ١ ص ٢٦٧، ابو مخرمة، تاريخ ثغر عدن ج ١ ص ٢١ واللخبة قرية مستحدثة بناها الامير عثمان بن علي الزنجيلي التكريتي نائب بني ايوب في عدن. ابن المجاور. تاريخ المستبصر ص ١٤٨، العبادلي هدية الزمن ص ٨، مجهول. قلائد الجمن ص ٩٤.
(٣٤) العبدلي هدية الزمن ص ١٤.
(٣٥) ابن المجاور. تاريخ المستبصر ص ١٢٦.

١ . دور السكان.

ادى نشاط العمل التجاري في عدن خلال العصر الايوبي الى تزايد سكانها العرب القادمين اليها من اطراف اليمن والجزيرة العربية ومن الاقطار العربية المجاورة كما قصدها التجار من جنسيات مختلفة من العالم للعمل والاتجار[٣٦]، فازدهرت لكثرة الناس بها، وحفروا الابار وبنوا المساجد والاسواق والدكاكين، وفي عهد المعتمد رضي الدين محمد بن علي التكريتي نائب بني ايوب في عدن كثر الناس بها. فبنوا الدور والاملاك[٣٧].

وقد امدنا ابن المجاور[٣٨] بوصف طريف لدور عدن والمواد المستخدمة في بنائها، اذ يقول: «وبناء دورهم مربعة كل دار وحدها طبقتين الاسفل منها مخازن والاعلى منها مجالس، وبناؤهم بالحجر والجص والخشب والملح والجص»، ولاشك ان لوفرة المواد الاولية في مدينة عدن اثرها الواضح في تطور المدينة وكثرة الدور والقصور المبنية فيها، ونستدل من هذا الوصف لبناء دور عدن على ان لطبيعة المدينة التجارية اثرها في ذلك التصميم خدمة لوظيفتها التجارية، فاتخاذ الطابق الارضي (الاسفل) مخازن لخزن البضائع التي تصل التجار عن طريق البحر، يؤكد الاستفادة من تلك الدور كمخازن لتجهيز السوق بالبضائع، اما الطابق الاعلى فيستخدم لاستقرار العائلة واستقبال الضيوف، وكانت تلك الدور مربعة الشكل كما يوضح النص.

لقد اسهمت المواد الاولية للبناء اسهاما واضحا في انجاز الكثير من الاعمال العمرانية كبناء البيوت والاسواق والدكاكين والاسوار، ففي قرية اللحيه القريبة من عدن كانت هنالك ابار حلوة المياه، منها بئر اصحاب العمارة التي حفرت سنة ٦١٤هـ/ ١٢١٧م «لاجل ضرب اللبن» على احدى الروايات[٣٩]، اي انه يستخدم في صنع الاجر (الطابوق) والذي يشكل مادة اولية مهمة في البناء، وقد ذكرنا ان بناء دور عدن استخدمت فيها المواد الاولية مثل الحجر والجص، كما ان بناء اسوار عدن اعتمد على الحجر والجص.

اتسعت مدينة عدن في العصر الايوبي اتساعا كبيرا ووصلت عمارتها الى بابها[٤٠]، اي الى باب البر، وازداد عدد سكانها زيادة كبيرة، مما تطلب انجاز الكثير من

---

(٣٦) نفسه ص ١٣٤.
(٣٧) نفسه ص ١٣٠، ابو مخرمة. تاريخ ثغر عدن ج ١ ص ١٠، لقمان. تاريخ عدن ص ٦٥، ٧٤، ٣١٩.
(٣٨) تاريخ المستبصر ص ١٣٧.
(٣٩) نفسه ص ١٣٤.
(٤٠) نفسه ص ١٤٧.

الخدمات ذات النفع الاجتماعي العام لهم، وفي هذا الصدد وصف ابن المجاور[41] تلك الزيادة بقوله: «وكثر الخلق بها فبنوا الدور والاملاك وتوطن بها جماعة عرب من كل فج عميق»، وقال ايضا[42]، «وقد التأم اليها من كل بقعة ومن كل ارض وتمولوا فصاروا اصحاب خير ونعم» وهكذا ازدهرت مدينة عدن تجاريا وعمرانيا وازداد عدد سكانها، لكن المصادر الاولية لم تسعفنا باعطاء احصائيات معينة عن عدد سكانها وابرز جنسياتهم، ولاشك ان عددهم كان عددا كبيرا، ورغم كل ذلك ظل الطابع العربي هو الطابع الذي يعطي عدن هويتها العربية الاصيلة على مدى التاريخ وبقيت مركزا تجاريا مفتوحا على التجارة العالمية.

٢. الاوقاف والمساجد

وهي من الاعمال الخيرية والمنشآت العمرانية الخدمية ذات النفع العام للسكان، فقد ذكر المؤرخون[43] ان الامير عثمان بن علي الزنجيلي التكريتي امير عدن، اوقف الاوقاف من الدكاكين والدور والاملاك، فضلا عن المسجد الذي بناه بعدن والمعروف بـ: «مسجد الزنجيلي»، وجعل خان البز (وكان سوقا) الذي بناه بعدن وقفا على مسجده هذا يصرف منه على المسجد مايحتاج اليه، ومازاد عن موارد ذلك الخان كان يصرفه على المسجد الحرام بمكة، ويروي الخزرجي[44] ان الزنجيلي اشترى كثيرا من العقار والدكاكين والدور بعدن واوقفها على المسجد الحرام بمكة.

مما سبق يتضح لنا ان الزنجيلي قام ببناء العديد من الدكاكين والدور فضلا عن المسجد المعروف باسمه، وكذلك اشترى كثيرا من الدكاكين والدور وجعلها وقفا على المسجد الحرام بمكة، بعد ان يصرف منها مايحتاجه مسجده في عدن والمعروف بـ: مسجد الزنجيلي، وتلك من اعمال البر والخير والاحسان، تدلنا على ورعه وتقواه، وقد اشاد مؤرخو اليمن باعماله الخيرية هذه، ومن المناسب بهذا الصدد ايراد رأي المؤرخ الجندي[45] في اعمال الزنجيلي هذه، اذ يقول: «ولقد كنت لماقدمت عدن

---

(٤١) نفسه ص ١٣٠.
(٤٢) نفسه ص ١٣٤.
(٤٣) الجندي. السلوك ج ٢ ورقة ١٧٥، ج ٣ ورقة ٦٠أ، ١١٦أ، الخزرجي. طراز اعلام الزمن ورقة ٢٣٦أ، الكفاية والاعلام ورقة ٧٧أ، ابن الديبع. قرة العيون ق ١ ص ٣٨٥، ابو مخرمة. تاريخ ثغر عدن ج ٢ ص ٦٣، لقمان. تاريخ عدن ص ٦٧، ٢٦٧.
(٤٤) الكفاية والاعلام ورقة ٧٧أ.
(٤٥) السلوك في طبقات العلماء والملوك ج ٢ ورقة ١٧٥.

ورأيت ماوقفه هذا الامير الزنجيلي على الحرم والمسجد الذي بناه على الخان بعدن استعظمت امره واستكثرت خيره»، ويمثل الجندي في هذا النص رأي احد مؤرخي اليمن المشهورين وفيه توضيح لما بذله الامير عثمان الزنجيلي في سبيل الخير والبر.

ومن الانجازات العمرانية التي بنيت في عدن: الجامع الذي بني عند حمام المعتمد رضي الدين محمد بن علي التكريتي وذلك سنة ٦٢٥هـ / ١٢٢٧م[٤٦]، اي في عهد الملك المسعود يوسف اخر السلاطين الايوبيين في اليمن، ذكر الاستاذ حمزة لقمان[٤٧] في وصفه ان المعتمد التكريتي عَمّر مسجدا ضخما قرب حمامه على ساحل حقات، ونستنتج من تاريخ بنائه ان المعتمد استمر اميرا على عدن حتى اواخر العصر الايوبي، ولعله كان نائبا عليها منذ سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م، بعد عزل نائبها ابن عين الزمان في تلك السنة[٤٨]، ونرجح انه كان نائبا عليها منذ عهد السلطان طغتكين، فقد ورد ذكر امارته عليها سنة ٥٩٢هـ / ١١٩٥م[٤٩]، لكن سنوات حكمه عليها لم تكن متصلة بل متقطعة، ولا تحددها مصادر ترجمته[٥٠].

٣. الحَمّامات:

استدعت كثرة الناس بعدن الحاجة الى بناء الحمّامات وتوفير المياه اللازمة لها، وكانت الحمامات من الوحدات العمرانية المعروفة في عدن قبل العصر الايوبي، ثم اضاف الايوبيون ونوابهم حمامات اخرى خلال مدة حكمهم فيها، اذ يذكر ابن المجاور[٥١] ان الناس كثروا بعدن وبنوا الحمامات، ومنها الحمام الذي بني عند حبس الدم[٥٢] سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٤م، كما بنى المعتمد التكريتي حماما عرف باسمه (حمام المعتمد)، وقد بني جامع عدن بجانب هذا الحمام سنة ٦٢٥هـ[٥٣]، وذكر ابو مخرمة[٥٤]

(٤٦) ابن المجاور. تاريخ المستبصر ص ١١٧ ـ ١١٨.
(٤٧) تاريخ عدن ص ٧٤.
(٤٨) صالح الحامد. تاريخ حضرموت ص ٤٥١، العيدلي. هدية الزمن ص ٧٤، وذكر تولي (فارس الدولة) بعده، وليست لدينا معلومات عنه وعن اعماله في عدن.
(٤٩) ابن المجاور. تاريخ المستبصر ص ١٣٧، ابو مخرمة. تاريخ ثغر عدن ج ٢ ص ٢٢٣، وذكرا ان المعتمد امر سنة ٥٩٢هـ بقتل الكلاب السائبة في عدن، لان كلبا تعرض لولدها، فقتل في اليوم خمسة وعشرين كلبا، وهرب الباقون الى رؤوس الجبال وبطون الاودية.
(٥٠) ابن المجاور. تاريخ المستبصر ص ١٣٠ ـ ١٣١، ١٣٧. ابو مخرمة. تاريخ ثغر عدن ج ٢ ص ٢٢٣.
(٥١) تاريخ المستبصر ص ١١٧، ١٢٠.
(٥٢) اسم موضع، ذكر ابن المجاور انه يقع قرب جبل حقات. تاريخ المستبصر ص ١٢٠.
(٥٣) ابن المجاور، تاريخ المستبصر ص ١١٧ ـ ١١٨.
(٥٤) تاريخ ثغر عدن ج٢ ص ٢٢٣.

ان للمعتمد حماما مشهورا بعدن، ويروي ابن المجاور[٥٥] أيضا أن المعتمد بنى حمام حسين، ومن خلال التسميتين نستدل ان حمام المعتمد هو حمام اخر وليس حمام حسين نفسه الذي بناه، وبذلك نرجح انه كان حماما ثانيا، ويروي الاستاذ حمزة لقمان[٥٦] ان المعتمد بنى (حمامات) حسين في حدود سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م، وليست لدينا معلومات كافية عن شخصية حسين هذا الذي سمي الحمام (او الحمامات) باسمه، ولعله كان بانيها او المشرف عليها او ضامنها، اذ وردت بصيغة الجمع، مما يدل على ان عددا من الحمامات اقترنت باسمه في مدينة عدن.

يشكل بناء الحمامات انجازا عمرانيا وثيق الصلة بالسكان اذ يقدم لهم خدمة اجتماعية ضرورية، وتعد ظاهرة انتشارها من المظاهر العمرانية المعروفة في معظم المدن العربية والاسلامية وفي مختلف العصور التاريخية، وبصورة خاصة في المدن التي تطورت واتسعت وازداد عدد سكانها مثل مدينة عدن، نتيجة لاهميتها ونشاط الحركة التجارية فيها، وبحكم موقعها الجغرافي المهم، او تلك المدن التي اتخذت عواصم او مراكز دينية وغيرها، وكانت الحمامات ذات طراز عمراني تراثي خاص بها، كما سميت بأسماء بناتها او مصمميها او المشرفين عليها، وقد نقل لنا الاستاذ حمزة لقمان[٥٧] وصفا رائعا لحمامات حسين وبنائها ومواصفاتها الفنية والمعمارية على لسان المسيو دي مرفيه قائد البعثة الفرنسية التي ارسلتها شركة تجارية فرنسية الى عدن سنة ١٧٠٨م، اذ يقول: «بين العمارات البارزة نجد حمامات رائعة منقوشة ومخططة بالبلور والمرمر والحجارة الملونة بالاخضر والاحمر والازرق، والحمامات من الداخل مزينة بشرفات تسندها دعامات رائعة المنظر، وتنقسم الى جزأين: احدهما مغاسل وثانيهما غرف مسقوفة بالعقود».

نستدل من وصف الحمامات على مدى التطور العمراني الرائع لها. وجمال الالوان الطبيعية في الصخور المستخدمة في البناء، مع دقة النقوش وجمالها وروعتها، بحيث اضفت عليها منظرا جميلا ورائعا، وكانت الحمامات مقسمة الى قسمين احدهما مغاسل والاخر غرف مسقوفة بالعقود، وهذا التقسيم يشبه ماعليه الحمامات الحديثة اليوم، حيث تخصص الغرف للاغتسال وهنالك قسم للمغاسل الخاصة الملحقة بالحمام.

---

(٥٥) تاريخ المستبصر ص ١٣٠.
(٥٦) تاريخ عدن ص ٧٤ ـ ٧٥.
(٥٧) المصدر والصفحة نفسها.

ومن الامور المرتبطة بالحمامات ضرورة توفير المياه اللازمة لها، وكان مصدر تلك المياه في عدن هو: الابار، وبسبب ازدياد السكان وتطور المدينة تنوعت الخدمات الاجتماعية لسكانها وازدادت، ففضلا عن استخدام الابار لتزويد الحمامات بالمياه، فان وظيفتها الاساسية هي استعمال مياهها للشرب ولحاجة السكان اليومية في البيوت وبقية المرافق الحيوية في المدينة، وقد وصف لنا ابن المجاور[٥٨] تطور مدينة عدن وازدياد سكانها وحاجتهم الى الابار، اذ يقول: «وحفرت الناس بها الابار وبنوا بها المساجد وأقاموا المنابر، ورجعت طيبة»، وقال ابو مخرمة: «وكثر بها الناس في دولة بني ايوب وتوطنها جماعة من كل فج وحفروا بها الابار وبنوا بها المساجد وأقاموا بها المنابر»[٥٩].

وقد اسهب ابن المجاور[٦٠] في حديثه عن ابار عدن، وقسمها الى عدة اقسام وفقا لطبيعة مياهها، فهنالك الآبار العذبة ومنها بئر الزعفران الذي يقع في حارة الزعفران، وهنالك ابار وجدت بسبب حاجة معينة، فمن الابار العذبة بعدن: «بئر الحمام» التي حفرها المعتمد التكريتي وهي بئر جديدة اي مستحدثة في عهده، اذ هنالك بئر الحمام الثانية وهي قديمة، ويقدر ابن المجاور عدد الحمامات الحلوة داخل مدينة عدن بـ ١٨٠ بئرا، ومن الابار المالحة: بئر سنبل قرب الحمام، وهذه الابار مخصصة لحمام المعتمد التكريتي اذ تقع على مقربة منه، وهنالك ابار ماؤ ها بحر عدن، منها بئر سوق الخزف، والذي تستدل من تسميته على انه سوق خاصة ببيع وتجارة الخزف، وليست لدينا معلومات كافية عن هذا السوق سوى اقتران اسمه باسم البئر التي حفرت عند ذلك السوق والتي كانت دليلنا الوحيد في معرفته.

الخلاصة:

ازدهرت عدن ازدهارا عظيما، بسبب استقرار الاحوال السياسية الداخلية خلال العصر الايوبي، ونشطت التجارة فيها وازدادت الموارد المالية التي سخرت لتطور المدينة عمرانيا على النطاقين الاقتصادي والاجتماعي، وذلك ببناء وتجديد بناء العديد من المنشآت العمرانية ذات المساس بحياة السكان.

اوضح البحث ان الانجازات العمرانية التي شهدتها عدن تمثل قفزة نوعية في تاريخ هذه المدينة العربية العريقة، وقد نهض بتلك الانجازات اميران قديران هما:

(٥٨) تاريخ المستبصر ص ١٣٠.
(٥٩) تاريخ ثغر عدن ج ١ ص ١٠.
(٦٠) تاريخ المستبصر ص ١٣١ ـ ١٣٢، للتفصيل عن ابار عدن واقسامها، انظر المصدر نفسه ص ١٣٢ ـ ١٣٤.

ابو عمرو عثمان بن علي الزنجيلي التكريتي والمعتمد رضي الدين محمد بن علي التكريتي، اذ انجزا معظم تلك الخدمات ذات الصلة الوثيقة بحياة السكان الاقتصادية والاجتماعية، فكانا بحق من القادة الخالدين في تاريخ مدينة عدن بصورة خاصة وتاريخ اليمن والتاريخ العربي بصورة عامة.

ان الاستنتاج الذي يمكن استخلاصه من خلال البحث يؤكد ان الايوبيين نجحوا نجاحا رائعا في تحقيق الامن والاستقرار وحماية التجارة والتجار داخل مدينة عدن وميناءها وخارجها، ومن الجدير بالذكر ان كثيرا من تلك الانجازات كالدور والاسواق والمساجد والحمامات كانت قائمة لكن السلاطين الايوبيين ونوابهم اضافوا وحدات جديدة، وجددوا بناء الوحدات القديمة، كما بنوا وحدات جديدة كالأسوار والقيصريات وباضافة الوحدات الجديدة الى الوحدات القديمة، يكون السلاطين الايوبيون ونوابهم في عدن قد اسهموا اسهاما فعالا في تطوير مدينة عدن، فسجلوا مأثرة جديدة الى مآثر تاريخنا العربي والاسلامي المجيد.

خارطة قديمة لطوغرافية
مدينة عدن

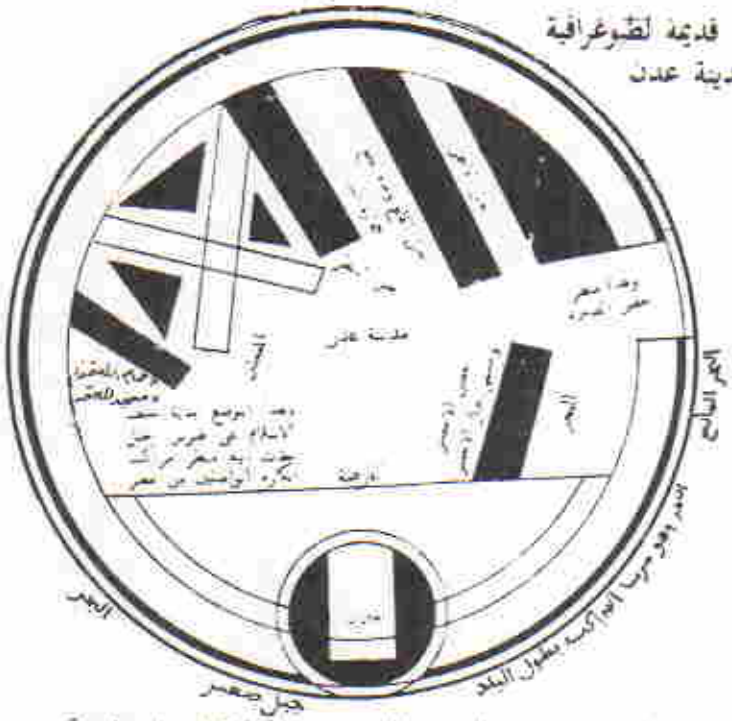

المصدر ابن المجاور المستبصر ص ١٢٩ ـ ابو محرمة ثغر عدن ج ١ مقابل ص ٧٠